حقيقة تجسّم الأعمال
-قراءة تحليليّة في تفسير الميزان-

الشيخ حسنين الجمّال[1]

مقدّمة:

يُعدّ مبحث تجسّم الأعمال من المباحث التي شغلت المفسّرين والمتكلّمين والفلاسفة والعرفاء فأخذت حيّزاً من اهتمامهم، فتراهم بين من ينفي تحقّق تجسّم الأعمال فيحمل ظاهر القرآن الكريم على المجاز، وبين مؤيّد لهذا التجسّم.

ونشب الخلاف في صفوف المؤيدين أيضاً. فكلّ منهم يفهم معنى التجسّم وفقاً لمبانيه ومبادئه. فمنهم من يعتبر أنّ العمل يتحوّل في الآخرة إلى جسم، ومنهم من يعتقد أنّ العمل يناسبه جسم عند الحساب، وآخرون رأوا غير هذا. ولكلّ فريق أدلّته التي يعتبرها مؤيّدة لرأيه.

وممّن له باع في هذه المسألة، صاحب تفسير الميزان السيد محمد حسين الطباطبائي الذي عالج هذا الموضوع وقدّم له فهماً دقيقاً.

وقد عُقد هذا البحث لمعرفة رأيه الذي أودعه تفسير الميزان.

مصطلحات البحث:

إنّ الخوض في غمار أي بحث للوصول إلى إذعان من النفس بنتيجة معينة، فرعُ تصوّره! لذا كان من اللازم الشروعُ بتبيان المبادئ التصورية والمصطلحات

١) ماجستير في الفقه والأصول، جامعة المصطفى صلى الله عليه وآله العالميّة.

الأساسية لهذا البحث قبل البدء بالعرض والتحليل.

وبما أنّ هذا البحث يتمحور على تجسّم الأعمال، صار من المحتّم عرض معنى كلٍّ من العمل والتجسّم وتجسّم الأعمال.

١- العمل:

بقليل من التدقيق والتأمّل يُمكن القول إنّ للعمل معنيين: معنى خاص ومعنى عام.

أ. المعنى الخاص:

يقول الراغب في مفرداته: إنّ العمل هو «**كل فعل يكون من الحيوان بقصد**»[١]. فيُمكن القول إنّ العمل بالمعنى الخاص يشمل كلّ ما يصدر من أعضاء الإنسان وجوارحه، من حركات جسدية أو أقوال أو نظرات أو غير ذلك.

ب. المعنى العام:

وهو المراد في بحث تجسّم الأعمال، ويشمل:

- العمل بالمعنى الخاص.
- عقائد الإنسان وأفكاره.
- حالات الإنسان القلبية وملكاته النفسانية.

ويُمكن الاستفادة من حديث الإمام الصادق عليه السلام؛ بوصفه إشارة للوصول إلى هذا التقسيم. فالإمام عليه السلام يرى أن الإيمان – الذي هو حالة قلبية – عمل، فيقول عليه السلام: «(...) **الإيمان عمل كله، والقول بعض ذلك العمل**»[٢].

فإذا كانت الحالات القلبية بنظر الإمام عليه السلام عملاً، فيُمكن التعميم واعتبار العمل شاملاً للعقائد وللعمل بالمعنى الخاص.

---

١) الراغب الأصفهاني: **مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم والدار الشامية، دمشق، بيروت، ط ١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، مادّة عمل.

٢) الكليني، محمد بن يعقوب: **الأصول من الكافي**، تصح. علي أكبر الغفّاري، ط ٤، دار التعارف، بيروت، ١٤٠١هـ، ج٢ ص ٣٤

٢- التجسّم:

«إنّ الجسم عبارة عن كلّ ما يستقرّ في مكان أو حيّز ويكون محسوساً، فهو أعمّ من أن يكون من الإنسان أو الحيوان أو النبات أو الجماد، وليس فيه نظر إلى كونه متخلّياً عن الروح أم لا كما في الجسد، ولا إلى كونه على هيئة مخصوصة أم لا كما في الجسم. ولا يخفى أنّ هذا التعريف بالنسبة إلى الأجسام الكثيفة المادّية. وأمّا الأجسام اللطيفة كالجنّ والملائكة: فهي خارجة عن التعريف. وباعتبار اشتداد الجسميّة وظهور قوّته تشتقّ منه أفعال وصيغ انتزاعيّة، فيقال: جسم وجسيم وتجسّم وأمثالها»[١].

٣- تجسّم الأعمال:

إن عمل الإنسان في الدنيا عرضٌ وليس مستقلاً، فهو يقوم بالإنسان غير منفصل عنه؛ ضرورة قيام العرض بالجوهر. ومعنى تجسّم الأعمال، أنّ العمل العرضي يناسبه جسم في الآخرة، أو يتحوّل إلى جسم يوم القيامة، أو أنّ ظاهره عمل عرضي وباطنه شيء له جسم. بمعنى أنّ هذا العمل الذي كان من لواحق الإنسان، يناسبه جسم مستقل، أو يصير جسماً مستقلاً، أو يكون باطنه جسماً.

والبحث معقود لمعرفة رأي العلامة الطباطبائي من تجسّم الأعمال. فهل يقبل العلامة هذه النظرية؟ ثمّ إن قبلها، فأيّ معنى من معاني تجسّم الأعمال يتبنّى؟

لذا سأستعرض فرضيات تجسّم الأعمال الممكنة لمعرفة اختيار العلامة منها.

أولاً: فرضيات تجسّم الأعمال:

إنّ كل ما في هذه الدنيا زائل لا محالة، فـ **«الحياة المادية قائمة على أساس التبدّل والتحوّل منعوتة بنعت الحركة، والتغيّر زائل نافد»**[٢].

١) مصطفوي، حسن: **التحقيق في كلمات القرآن الكريم**، ط١، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران، ١٤١٧هـ، ج٢، ص٨٨.

٢) الطباطبائي، محمد حسين: **الميزان في تفسير القرآن**، ط ١، مؤسسة الأعلمي، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج ١٢ ص ٣٣٩

ويُمكن أن تُسمّى حركة الجوارح في الزمان بـ «**العمل**». وهذا يكون العمل بالمعنى الخاص. كما يُمكن تعميم الكلام فيُقال إنّ كلّ ما يقوم به الإنسان في الزمان يُسمّى بـ«**العمل**». فيكون هذا معنى العمل بالمعنى الأعم.

وبما أنّ العمل بقسميه موجود في الدنيا، فهو زائل وفانٍ لا محالة. ويُمكن القول إنّه في اللحظة التي يبدأ فيها الإنسان بالعمل يبدأ عمله بالزوال. وإذا انصرم الوقت وانتهى العمل، صار من المستحيل إعادة ذلك العمل الفاني.

الفرضيات المحتملة:

يمكن تقديم فرضيات ثلاث عن تجسّم الأعمال، وهي:

١- الفرضية الأولى: تحوّل العمل الدنيوي إلى جسم في الآخرة:

تنصّ هذه الفرضية على أنّ العمل الدنيوي الذي قام به الإنسان في حياته، سوف يتحوّل في نهاية المطاف إلى جسم أخروي.

هذا العمل الذي كان قائماً في موضوع (الموضوع هو الإنسان) صار مستقلاً وقائماً بنفسه. فعلى سبيل المثال، إنّ الصلاة التي يؤديها الإنسان لم تكن قائمة في الدنيا بنفسها، بل قائمة بمصلّيها. وعلى ضوء هذه النظرية، تتحوّل الصلاة إلى جسم مستقلّ قي الآخرة لا يحتاج إلى شيء ليقوم به. ويكون الجسم الأخروي المتحوّل عن العمل الدنيويّ جزاءً لعمل الإنسان في الدنيا.

٢- الفرضية الثانية: لكلّ عملٍ دنيويّ جسمٌ أخرويّ مناسب:

في هذه الفرضية، لا يتحوّل العمل الدنيوي إلى أيّ جسم؛ فالعمل الدنيوي فانٍ ولن يعود، بل هناك أجسام أخروية تناسب كلّ عمل دنيويّ. فعندما يجد المؤمن في الآخرة قصراً له –على سبيل المثال– يسأل عن هذا القصر، فيُجاب بأنه ملك هذا القصر لمناسبته لعملٍ صالح قام به هذا المؤمن في الدنيا. وعندما تلسع الحيّة في الآخرة وجه الكافر –على سبيل المثال– يسأل عنها، فيُجاب بأنها تناسب عملاً سيّئاً قام به في الدنيا، وهكذا.

فيتحصّل على ضوء هذه الفرضية أنه لكلّ عمل دنيوي جسمٌ أخروي يناسبه. وتمثّل الأجسام الأخروية جزاء الأعمال الدنيوية التي قام بها الانسان في حياته.

٣- الفرضية الثالثة: حقيقة العمل هي جسم:

هذه الفرضية تشير إلى أنّ لكلّ عمل حقيقة خالدة. فحقيقة العمل الدنيوي الفاني ليست فانية؛ لأنّ االإنسان عندما يقوم بعمل ما، يخلق حقيقة باقية، سواء شعر بذلك أم لم يشعر. فلا تكون الأجسام الأخروية أعمالاً دنيوية متحوّلة، ولا تكون جزاء للأعمال الدنيوية. إنما تكون الأجسام الأخروية حقيقةً للأعمال الدنيوية.

وعندها لا يُمكن للإنسان إذا رأى أجساماً في الآخرة أن يقول إنّ هذا ليس عملي. نعم، له أن يطرح هذا السؤال في الآخرة إذا كان الواقع مصداقاً للفرضية الأولى. كما لا يُمكن للإنسان أيضاً إذا رأى أجساماً في الآخرة أن يعترض فينادي: إنّ هذا الجزاء لا يُناسب ما عملته في الدنيا! فيتّهم هذا الانسانُ ربَّه -والعياذ بالله- بالظلم.

على ضوء هذه النظرية، يكون لكل عملٍ حقيقة محجوبة عن أغلب الناس، ولا يرونها إلا عندما تقوم الساعة ويُكشف الغطاء وتزول الحجب فيرى كلّ إنسان حقيقة عمله الذي قام به في الدنيا. فيكون جزاء كلّ إنسان عمله نفسه.

وقد يطرأ على ذهن القارئ سؤال عن حقيقة الجسم الأخروي. وفي مقام الجواب، يُمكن القول إنّ الآراء قد تعدّدت في هذا المجال. لذا سأكتفي بذكر رأي العلامة الطباطبائي؛ لأنّ البحث معقود لمعرفة رأيه في تجسّم الأعمال.

يعتقد العلامة الطباطبائي أنّ الجسم الأخروي ليس كالجسم الدنيوي؛ بل هو جسم يناسب النشأة الأخروية، فهو عقيب رواية يذكرها يشير إلى أنّ الرواية «**تنفي كون الأعمال أجساماً دنيوية محكومة بالجاذبية الأرضية التي تظهر فيها في صورة الثقل والخفّة**»[1].

١) الطباطبائي، م. س، ج ٨ ص ١٧

ثانياً: رأي العلامة الطباطبائي في تجسّم الأعمال:

١- نظرة العلامة الطباطبائي إلى آيات تجسّم الأعمال:

يرى العلامة الطباطبائي أنّ بعض الآيات تدلّ على التجسيم، فكان يعلّق عليها ويشير إليها. ومن جهة أخرى، كان يكتب في شرحه لبعض الآيات أنّ الجزاء هو العمل نفسه، فإذا كان الجزاء هو العمل نفسه، فهذا يعني -بدواً- أنّ العلامة يتبنّى الفرضية الثالثة. ولأنّ هاتين الطائفتين من الآيات تُعينان على استخلاص رأي العلامة بدقّة، سأستعرض بعض الآيات الدالة على تجسّم الأعمال وبعضها الدال على أنّ الجزاء هو العمل نفسه.

أ. **الطائفة الأولى: آيات ظاهرة في تجسّم الأعمال:**

- **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**[١].

يقول العلامة: «**في الآية من الدلالة على تجسّم الأعمال وتحقّق نتائجها ما لا يخفى، فإنّه تعالى ذكر أولاً أنّ اختيارهم الثمن القليل على ما أنزل الله هو أكل النار في بطونهم، ثم بدل اختيار الكتمان وأخذ الثمن على بيان ما أنزل الله في الآية التالية من اختيار الضلالة على الهدى، ثم من اختيار العذاب على المغفرة، ثم ختمها بقوله: فما أصبرهم على النار، والذي كان منهم ظاهراً هو الإدامة للكتمان والبقاء عليها، فافهم**»[٢].

- **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾**[٣].

يرى العلامة أنّ حمل هذه الآية على المجاز هو جرّاء الغفلة عن معنى تجسّم الأعمال. والحال أنّ هذه الآية ممّا يدلّ على تجسّم الأعمال[٤].

١) سورة البقرة، الآية: ١٧٤

٢) الطباطبائي، م. س، ج١ ص ٤٢٦

٣) سورة النساء، الآية: ١٠

٤) راجع: الطباطبائي، م. س، ج٤ ص ٢١٠

- ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ﴾[١].

إنما يتمّ الإحضار في ما هو موجود غائب. وبما أنّ الله تعالى سوف يُحضر هذه الأعمال يوم القيامة، فهذا يعني أنّها موجودة محفوظة عن البطلان. فهذه الآية -بنظر العلامة- هي من الآيات الدالة على تجسّم الأعمال[٢].

- ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[٣].

حيث يرى العلامة أنّ هذه الإحاطة إحاطة فعليّة لا استقبالية، وبالتالي فهذه الآية تندرج في إطار الآيات التي تدلّ على تجسّم الأعمال[٤].

- ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾[٥].

يرى العلامة أنّ ولاية الشيطان تتصوّر بصورة النار فتعذّب المجرمين. وهذا مستفاد من الآيات الدالة على تجسّم الأعمال[٦].

- ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[٧].

فالحاضر هو العمل نفسه، والآية تدلّ على تجسّم الأعمال[٨].

- ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾[٩].

وهي «من أوضح الآيات دلالة على أنّ الإنسان إنّما يعذّب بعمله ويخلّد فيه، وهو تجسّم الأعمال»[١٠].

- ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾[١١].

وهي من الآيات الظاهرة في تجسّم الأعمال، ولا حاجة إلى تأويل مضاف

١) سورة آل عمران، الآية: ٣٠
٢) راجع: الطباطبائي، م. س، ج ٣ ص ١٨٠
٣) سورة التوبة، الآية: ٤٩
٤) راجع: الطباطبائي، م. س، ج٩ ص ٣١٦
٥) سورة هود، الآية: ١٠٦
٦) راجع: الطباطبائي، م. س، ج ١١ ص ٢٩
٧) سورة الكهف، الآية: ٤٩
٨) راجع: الطباطبائي، م. س، ج ١٣ ص ٣٢٥
٩) سورة، طه، الآيتان: ١٠٠-١٠١.
١٠) الطباطبائي، م. س، ج ١٤ ص ٢٠٨
١١) سورة الشورى، الآية: ٢٢

محذوف تقديره «**مشفقين من وبال ما كسبوا**»[1].

- ﴿**وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾[2].

فمعنى التوفية في هذه الآية هو إعطاؤهم العمل نفسه، وهذه الآية -حسب رأي العلامة- دالة على تجسّم الأعمال[3].

- ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾[4].

فـ«**المراد بالنار نار جهنم، وكون الناس المعذّبين فيها وقوداً لها؛ معناه اشتعال الناس فيها بأنفسهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾**»[5]، فيناسب تجسّم الأعمال، كما هو ظاهر الآية التالية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[6]»[7].

- ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[8].
- ﴿**إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا * إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا**﴾[9].

ويرجّح العلامة أن تكون الآيتان مسوقتين على مسلك تجسّم الأعمال، وتصفان حقيقة الإيفاء بالنذر وإطعام الطعام لوجه الله تعالى.

- ﴿**يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ**﴾[10].

فقد تحمل هذه الآية على تجسّم الأعمال[11].

- ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾[12].

---

١) راجع: الطباطبائي، م. س، ج ١٨ ص ٤٢
٢) سورة الأحقاف، الآية: ١٩
٣) راجع: الطباطبائي، م. س، ج ١٨ ص ٢٠٩
٤) سورة التحريم، الآية: ٦
٥) سورة المؤمن، الآية : ٧٢
٦) سورة التحريم، الآية ٧
٧) الطباطبائي، م. س، ج ١٩ ص ٣٣٤
٨) سورة التحريم، الآية: ٧
٩) سورة الدهر، الآيتان: ٤ و٥
١٠) سورة الزلزلة، الآية: ٦
١١) الطباطبائي، م. س، ج ٢٠ ص ٣٤٣
١٢) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧و٨

حيث إنّ إراءة الأعمال تدلّ على تجسّم الأعمال[١].

- ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون﴾[٢].

وهي من الآيات الدالّة على تمثّل الأعمال[٣].

ب. الآيات الظاهرة في أنّ الجزاء يوم الجزاء هو العمل نفسه:

- ﴿لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٤].
- ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾[٥].
- ﴿فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[٦].
- ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَه * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾[٧].
- ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ﴾[٨].
- ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ﴾[٩].
- ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[١٠].
- ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١١].
- ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١٢].
- ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١٣].
- ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[١٤].
- ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[١٥].

١) الطباطبائي، م.س، ج ٢٠ ص ٣٤٣
٢) سورة الجاثية، الآية: ٣٣
٣) راجع: الطباطبائي، م. س، ج ١٨ ص ١٨٣
٤) سورة التحريم، الآية: ٧
٥) سورة البقرة. الآية: ٢٨١
٦) سورة البقرة، الآية: ٢٣
٧) سورة العلق، الآية: ١٨
٨) سورة آل عمران، الآية: ٢٨
٩) سورة البقرة، الآية: ١٦٩
١٠) سورة النساء، الآية: ١٠
١١) سورة الصافات، الآية: ٣٩
١٢) سورة يس، الآية: ٥٤
١٣) سورة النمل، الآية: ٩
١٤) سورة المؤمنون، الآية: ١٧
١٥) سورة الإسراء، الآية: ١٤

٢- الرؤية الأوّليّة التقريبيّة التمهيديّة للعلامة الطباطبائي في تجسّم الأعمال:

يتراءى للقارئ هنا أنّ العلامة يرى للعمل الدنيوي أثراً في الآخرة. ولا يستطيع القارئ أن يجزم هل الأثر هو العمل نفسه أم أمر مغاير له؟ فمثلاً عندما يصل إلى تفسير قوله تعالى: ﴿**يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ**﴾، يردّد العلامة إراءة الأعمال بين كونها إراءة جزاء العمل وبين كونها مشاهدة للعمل نفسه[١].

وفي موضع آخر، في قوله تعالى: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى**﴾، يرى العلامة أنّ الإنسان لا يملك «**ملكاً يعود إليه أثره من خير أو شر أو نفع أو ضرّ حقيقة إلا ما جدّ فيه من عمل، فله ما قام بفعله بنفسه. فأمّا ما قام به غيره من عمل فلا يلحق بالإنسان أثره خيراً أو شرّاً**»[٢].

وعند قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾، يرى العلامة أنّ الناس يجزون بتبعات ما كانوا يعملون[٣].

وفي موضع آخر يرى أنّ ما سيستقبل الإنسان من خير أو شر؛ كجنة أو نار إنّما هو جزاء لما عمله في الدنيا[٤].

وتراه من ناحية أخرى يقول: «**بين العمل والجزاء رابطة حقيقيّة وراء الرابطة الوضعيّة الاعتباريّة التي بينهما عند أهل الاجتماع، ويجري عليها ظاهر تعليمه تعالى**»[٥]، و«**بين العمل وجزائه -كيف كان- نوع من المماثلة والمسانخة ولو تقريباً، وعلى ذلك يجري كلامه تعالى أيضاً كما هو ظاهر أمثال قوله تعالى ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾**»[٦].

فيتراءى للقارئ من خلال ما ذكر أنّ للعمل أثراً يوم القيامة، وأنّ الإنسان لا يملك حقيقةً إلا ما يعود إليه من أثر ذلك العمل. كما يُمكن للقارئ أن يفهم بدواً

١) الطباطبائي، م. س، ج ٢٠ ص ٣٩٣-٣٩٤
٢) م. ن، ج ١١ ص ٤٧
٣) م. ن، ج ١٩ ص ١١
٤) م. ن، ج ١ ص ٩٥
٥) م. ن، ج ٦ ص ٣٧٨
٦) م. ن، ج ٦ ص ٣٦١

عند مطالعة كلام العلامة أنّ الجزاء مغاير للعمل. فيتوهّم أنّ العلامة لا يؤيّد الفرضيّة الثالثة.

٣- الرؤية المعمّقة للعلامة الطباطبائي في تجسّم الأعمال:

قد لا تعبّر الرؤية الأوّليّة التقريبيّة بالضرورة عن رأي العلامة الدقيق. ولعلّ العلامة كان يريد أن يتدرّج في طرحه ليوصِل القارئ إلى فهم رؤيته المعمّقة، فهو يتّكل على نباهة القارئ ودقّة ملاحظته من جهة، ومن جهة أخرى فهو لا يريد أن يعمّق المطالب دائماً.

في هذه الرؤية، ترى العلامة يدفع أولاً التوهّم الذي يُمكن أن يحصل من الرؤية المتوسّطة، ويحلّ الإشكال ويعطي الحلّ عبر تبيان رأيه في العمل، ثمّ يطرح رأيه بالنسبة إلى الجزاء.

دفع التوهّم:

يرى القارئ أنّ العلامة تارة يقول إنّ الجزاء مغاير للعمل، وأخرى يصرّح بأنّ الجزاء هو العمل نفسه. ومن جهة أخرى يراه تارة يقول إنّ للعمل أثراً في الآخرة، وأخرى يقول إنّ هذا العمل ملازم للعامل إلى يوم القيامة.

فحتى لا يتوهّم القارئ من كلام العلامة، فيعتقد بوجود تهافت أو تنافٍ في كلامه، تنبّه العلامة فحذّر القارئ من ذلك التهافت؛ قائلاً: «**إياك أن تتوهّم أنّ الوجهين متنافيان**»[1].

حلّ الإشكال:

بعد أن نفى العلامة التهافت والتنافي المتراءى، صار من المناسب أن يحلّ الإشكال، فيعلم القارئ سبب طرح الرؤية المتوسّطة.

ففي مقام الحلّ يرى العلامة أنّ الرؤية الأوّليّة التمهيدية مطروحة من باب تقريب المطالب إلى أفهام عامّة الناس. فتراه يقول: «**إياك أن تتوهّم أنّ الوجهين**

١) م. ن، ج ١ ص ٩٥

متنافيان، فإنّ الحقائق إنّما تقرّب إلى الأفهام بالأمثال المضروبة؛ كما ينصّ على ذلك القرآن الكريم»[1].

وفي موضع آخر يشير العلامة إلى هذه النكتة -أي التقريب إلى الأفهام- حيث يقول إنّ «**القرآن الكريم يعلّل الأحكام العجيبة الموجودة في الجزاء؛ كمجازاة الإنسان بفعل غيره خيراً أو شرّاً، ويوضّحها بالقوانين العقلانيّة الموجودة في ظرف الاجتماع وفي سطح الأفهام العامّة، وإنْ كانت -حسب الحقيقة- ذات نظام غير نظام الحسّ، وكانت الأحكام الاجتماعيّة العقلانيّة محصورة على الحياة الدنيا، وسينكشف على الإنسان ما هو مستور عنه، يوم تبلى السرائر**»[2].

في هذا الكلام إشارة واضحة إلى أنّ قانون الجزاء يوم القيامة هو غير الموجود في هذه الدنيا.

وهكذا يكون العلامة قد منع القارئ من أن يتوهّم أنّ الرؤية الأوّليّة التمهيديّة متنافية مع الرؤية المعمّقة، وأخبره بأنّها كانت من باب تسهيل المطالب؛ لإيصالها إلى أذهان عامّة الناس، وأنّ رأيه في المسألة مودَعٌ في الرؤية المعمّقة.

ثالثاً: حقيقة الأعمال:

بعد أن قام العلامة الطباطبائي بدفع التوهّم المتقدِّم وحلّ إشكاليّته، صار من المناسب أن يطرح الحلّ؛ وذلك عن طريق تبيان رأيه في العمل، فتتّضح الصورة أمام كلّ من أراد أن ينهل من نمير الحقيقة.

يرى العلامة أنّ للعمل عند صدوره ظاهراً وحقيقة. وقد يعبّر أحياناً عن هذه الحقيقة بالباطن.

أمّا ظاهر العمل فهو العمل الواقع في ظرف الزمان، أي العمل المتصرّم المنعوت بالزوال. ويراه الناس في هذه الدنيا من دون أن تكون رؤيته مختصّة بفئة دون أخرى. أمّا حقيقة العمل فهي -كما ورد سابقاً- ليست متحوّلة عن أمر دنيويّ،

١) م. ن، ج ١ ص ٩٥
٢) م. ن، ج ٢ ص ١٨٠

بل إنّها توجد عند صدور العمل. وهذا ما يشير إليه العلامة عندما يصل إلى قوله تعالى: ﴿**وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا**﴾[1]، فيرى العلامة أنّ الكتاب الذي يلقاه الإنسان منشوراً هو العمل نفسه الذي عمله. ومن اللطيف أنّ الله سبحانه قال: ﴿**وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا**﴾، ففرّق الكتاب عن الطائر، ولم يقل: «**نخرجه**» حتى لا يتوهّم أحد أنّ العمل كان طائراً، ثم تحوّل يوم القيامة إلى كتاب، أو يتوهّم أنّ الطائر مستور غير خارج قبل يوم القيامة، فلا يلائم كونه ملازماً للإنسان في عنقة؛ كما في قوله تعالى: ﴿**وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا**﴾[2].

أضف إلى ذلك أنّ حقيقة العمل تبقى محفوظة متجسّمة إلى يوم القيامة. ففي قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا**﴾[3] استخدم محضراً دون حاضراً، إشارة إلى إحضار موجود غائب. وهذا يعني أنّ الأعمال تبقى موجودة، فهي محفوظة ويحضرها الله تعالى[4]، وطريقة الحفظ تكون عبر التجسيم.

وهذه الحقيقة أو هذا الباطن يبقى ملازماً للإنسان من حين صدوره. ويرى العلامة أنّ هذه الملازمة هي معنى قوله تعالى: ﴿**وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ**﴾. فالطائر في الآية الكريمة هو العمل. واستعمال العنق دون سائر الأعضاء؛ لأنّ العنق لا يفارق الإنسان ما دام حيّاً، بخلاف سائر الأعضاء. فإنّ اليد أو الرجل قد تقطع وتفارق الإنسان ويبقى الإنسان حيّاً. لذا جعل الإلزام في العنق للدلالة على الملازمة الدائمة[5].

وإذا كان كلّ الناس يرون في الدنيا ظاهر أعمالهم، فإنّ رؤية بواطن الأعمال في الدنيا مختصّة بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله والمؤمنين. والمقصود بالمؤمنين شهداء

١) سورة الإسراء، الآية: ١٣.
٢) الطباطبائي، م. س، ج ١٣ ص ٥٥-٥٦
٣) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.
٤) راجع: الطباطبائي، م. س، ج ٣ ص ١٨٠-١٨١
٥) راجع: م. ن، ج ١٣ ص ٥٤-٥٥

الأعمال لا عامّة المؤمنين[1]. أو بعبارة أخرى: إنّ ما عمله الناس «**من خير أو شرّ فإنّ حقيقته مشهودة لله عالم الغيب والشهادة، ثمّ لرسوله والمؤمنين في الدنيا، ثمّ لكم أنفسكم معاشر العاملين يوم القيامة**»[2].

نعم، قد يصل بعض الناس إلى مقام فيرون حقيقة أعمالهم في الدنيا قبل الآخرة. أمّا في الآخرة، فسوف يرى كلّ الناس حقائق أعمالهم، كما يقول العلامة: «**ثم تردّون إلى عالم الغيب والشهادة يوم القيامة فيريكم حقيقة عملكم**»[3]. فيُطلِع الله تعالى الإنسان يوم القيامة على نفس أعماله عياناً، ولا حجّة كالعيان.

وللمزيد من التوضيح، أشار العلامة الطباطبائيّ إلى بعض حقائق الأعمال المستفادة من القرآن الكريم. وبذلك يُظهر لنا دقّة رؤيته على الصعيدين النظريّ والتطبيقيّ. ومن تلك الحقائق التي أشار إليها:

١- حقيقة التعلّق بالدنيا:

بعد أن ذهب العلامة إلى أنّ لكلّ عمل حقيقة، أشار إلى أنّ حقيقة التعلّق بالدنيا هو العذاب، فقال: «**إنّ مقتضى آيات تجسّم الأعمال كون العذاب ممثّلاً للتعلّق بالدنيا والتوجّه نحوها**»[4].

٢- حقيقة ولاية الله تعالى وولاية الشيطان:

يرى العلامة أنّ حقيقة الدخول في ولاية الله تعالى هي دخول الجنة، وأنّ حقيقة الدخول في ولاية الشيطان هي دخول النار. فيقول: «**إنّ ولاية الله هي التي تظهر جنّة في الآخرة يتنعّم فيها السعداء، وولاية الشيطان هي التي تتصوّر بصورة النار فتعذّب المجرمين يوم القيامة؛ كما تفيده الآيات الدالّة على تجسّم الأعمال**»[5].

٣- حقيقة الإيفاء بالنذر وإطعام الطعام لوجه الله:

يرجّح العلامة أن تكون الآيتان: ﴿**إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا**

١) راجع: م. ن، ج ٩ ص ٣٩٢-٣٩٣
٢) م. ن، ج ٩ ص ٣٩٣
٣) م. ن، ج ٩ ص ٣٩٣
٤) م. ن، ج ١٥ ص ٢١٦
٥) م. ن، ج ١١ ص ٢٩

كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[١] مسوقتين على مسلك تجسّم الأعمال. وهذا يعني أنّهما تصفان حقيقة الإيفاء بالنذر وإطعام الطعام لوجه الله تعالى الصادرين من أهل البيت عليهم السلام الوارد ذكرهما في قوله تعالى: ﴿**يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا**﴾[٢].

فالإيفاء بالنذر وإطعام الطعام -حسب باطنهما- هما شرب من كأس مزاجها من كافور من عين لا يزال يفجّرها عباد الله بأعمالهم الصالحة.

فالعمل الواحد له ظهور في الدنيا وله حقيقة في الآخرة. وهذه الحقيقة تتكوّن وتتحقّق عند صدور العمل. ويؤيّد ذلك ظاهر قوله «**يشربون**» و «**يشرب بها**». فالله تعالى لم يدخل السين على هذين الفعلين للدلالة على المستقبل، فلم يقل «**سيشربون**» و«**سيشرب بها**». ثمّ إنّ وقوع قوله «**يوفون، يخافون، يطعمون**» متعاقبة في سياق واحد[٣].

وبعد هذا العرض، يُمكن أن يُستخلص أنّ العلامة يعتقد بتجسّم الأعمال بعد أن ثبت عنده عدم امتناع تمثّل الأعمال[٤]. ومعنى ذلك أنّه يرى أنّ لكلّ عمل من حين صدوره من الإنسان ظاهراً وباطناً؛ الظاهر موصوف بالزوال والفناء، فلا يتحوّل يوم القيامة إلى أيّ شيء، كما لا يناسبه أيّ شيء جسميّ في الآخرة، والباطن هو حقيقة العمل الباقية والملازمة للإنسان أبداً. فالإنسان يصنع حقيقة أعماله وباطنه منذ البداية، لكنّ هذا الباطن يظلّ مستوراً عن إدراكه ومحجوباً عنه وراء حجاب الغفلة إلى أن يُطلِعه الله تعالى عليه يوم القيامة. ويظهر بالتالي أنّ العلامة يتبنّى الفرضيّة الثالثة.

١) سورة الإنسان، الآيات: ٤-٥-٦
٢) سورة الإنسان، الآيات: ٧-٨-٩
٣) راجع: الطباطبائي، م. س، ج ١٣ ص ٥٣-٥٤-٥٥
٤) راجع: م. ن، ج ٨ ص ١٧

رابعاً: الآثار المترتّبة على القول بتجسّم الأعمال:

يُمكن أن يُفرَّع على القول بتجسّم الأعمال مجموعة من الآثار؛ وهي:

١- معنى الجزاء:

بناء على رأي العلامة الطباطبائي في تجسّم الأعمال، لا يعود الجزاء هو أثر العمل أو ما يتحوّل إليه العمل. بل إنّ فهم الجزاء يتغيّر ويصير الجزاء هو العمل نفسه.

فنعيم المؤمن هو عمله الصالح، وعذاب الكافر هو عمله السيء. وهذا ما يشير إليه العلامة عندما يصل إلى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[١]، حيث يرى أنّ عذاب الكافرين هو عملهم السيء نفسه الذي عملوه في الدنيا[٢].

فحقيقة العمل قد تكون جنّة أو ناراً، «**فليس للإنسان إلا ما هيّأه من ههنا، كما عن النبي**ﷺ: **(كما تعيشون تموتون، وكما تموتون تبعثون)**»[٣].

٢- انتفاء الظلم:

في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[٤]، يرى العلامة أنّ الحاضر يوم القيامة هو العمل نفسه، وبه يكون الجزاء. ولمّا عقّب الله تعالى بقوله: ﴿**وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾[٥] فُهِمَ أنّ انتفاء الظلم بناءً على القول بتجسّم الأعمال يكون أوضح؛ لأنّ الجزاء هو عمل الإنسان نفسه ولا صنع في ذلك لأحد[٦].

ويشير العلامة إلى هذه الفائدة -أيضاً- عندما يصل إلى قوله -تعالى-: ﴿**هَلْ**

١) سورة التحريم، الاية: ٧.

٢) راجع: الطباطبائي، م. س، ج ١٩ ص ٣٥٠

٣) الإحسائي، ابن أبي جمهور: **عوالي اللآلي العزيزية في الأحاديث الدينية**، تحـ. آقا مجتبى العراقي، ط١، مؤسسة سيد الشهداء، قم، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ج٤، ص٧٣

٤) سورة التحريم، الآية: ٧.

٥) سورة الكهف، الاية: ٤٩

٦) راجع: م. ن، ج ١٢ ص ٣٢١

تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١]، فالاستفهام إنكاريّ، والمعنى أنّه «**ليس جزاؤكم هذا إلا نفس العمل الذي عملتموه، ظهر لكم فلزمكم، فلا ظلم في الجزاء ولا جور في الحكم**»[٢].

وفي آية أخرى تظهر هذه النتيجة المترتّبة على فهم العلامة لتجسّم الأعمال. ففي قوله تعالى: ﴿**فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[٣]، حيث يرى العلامة أنّ قوله تعالى: «**ولا تجزون**» هو من قبيل العطف التفسيري، وقوله تعالى: ﴿**فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا**﴾ هو في الحقيقة برهان قاطع على انتفاء الظلم؛ لأنّه يدلّ على أنّ الجزاء يومئذ هو العمل نفسه. وبالتالي لا يمكن أن يُتصوّر بعد ذلك ظلمٌ؛ لأنّ الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، وإعطاء العامل نفس عمله وتحميله إياه لهو وضع الشيء في موضعه[٤].

٣- انتفاء الحاجة لمبحث العدل الإلهي:

إنّ مبحث العدل الالهي يُطرح إذا كان الجزاء مغايراً للعمل. فيُطرح هذا المبحث لمعرفة التناسب بين الجزاء والعمل، ولتنزيه الساحة الإلهيّة المقدّسة عن الظلم والجور تجاه عباده.

فالأثر المترتّب على فهم العلامة لتجسّم الأعمال هو انتفاء الظلم، وهو عينه المُراد من مبحث العدل الإلهي، وهو القول بأنّه لا يُمكن حمل الظلم على الله تعالى في قضية موجبة.

فرأي العلامة في تجسّم الأعمال يُريح الأذهان من الانهماك في بحث العدل الإلهي، ويُعين على توفير الطاقات الفكرية لمباحث أهمّ وأعمق.

٤- الأثر التربويّ:

إنّ من يعتقد بمسألة تجسّم الأعمال على ضوء فهم العلامة، ويلتفت إلى أنّ كلّ

١) سورة النمل، الآية: ٩٠.
٢) الطباطبائي، م. س، ج ١٥ ص ٤٠٦
٣) سورة يس، الآية: ٥٤.
٤) راجع: الطباطبائي، م. س، ج ١٧ ص ١٠٠-١٠١

ما يعمله ههنا سيلازمه في الآخرة، سوف يعود إلى أعماله الدنيوية فيراقبها. فمَنْ مِنَ الناس يحب أن تلازمه النيران والأفاعي والعقارب؟ ومَنْ منهم لا يحب أن يكون محفوفاً بالحور العين والأنهار المتنوّعة واللذائذ العديدة؟

إذاً، فإنّ تبنّي فهم العلامة لتجسّم الأعمال يدفع المرء ليكون إنساناً آخر في أفعاله، فيُراقب تصرّفاته ويدقّق في أعماله خشية أن تكون حقيقة أعماله هي الشقاوة الأبديّة.

خاتمة:

لقد خلق الله -سبحانه- الإنسان على أحسن ما يمكن: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾[1]، وهيّأ له كلّ الأسباب إلى أن أوصله إلى هذا العالم: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾[2]؛ حيث أعطاه حجّة داخليّة: ﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾[3]، ثمّ أرسل إليه عشرات الآلاف من الأنبياء والأوصياء وأنزل له الرسالات السماويّة؛ قال -تعالى-: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾[4]، ثمّ جعله حرّاً يفعل ما يريد؛ قال -تعالى-: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾[5] ليبني باختياره وجوده يوم القيامة، فنحن في كلّ آن ولحظة، وفي كلّ صغيرة وكبيرة، وفي كل اعتقاد وعمل، نبني نفوسنا ووجودنا يوم القيامة، فأيّ علم وعمل سنختار؟ وكيف سنبني هذا الوجود؟!

١) سورة التين، الآية: ٤.
٢) سورة الشمس، الآيتان: ٧و٨
٣) سورة الروم، الآية: ٣٠.
٤) سورة الحديد، الآية: ٢٥.
٥) سورة الإنسان، الآية: ٣